مولود قاسم

في ذكراه .. وذكرياته ..

للأستاذ :محمد الطيب العلوي

محاضرة ألقيت ببباتنة في ذكرى مولود

بسم الله الرحمن الرحيم

دعيت للمساهمة بكلمة عن مولود قاسم ـ رحمه الله ـ في ذكراه . . قبلتُ الدعوة ، ورحتُ أراجع نفسي .. عن أي مولود أتحدث ؟ هل أتحدث عن مولود الطالب الذكي المجتهد الحييِّ الخجول الذي لاتُنتزَع الكلمة منه إلا بشق النفس؟ أم عن مولود الشاب بالقاهرة ، وهو يتنقل بين الكليات والمكتبات بحثا عن شيء لايعرفه غيره ، تنقل النحلة من زهرة لأخرى ، ويحرر ويتر جم ويعرِّب المذكرات والمقالات مع ممثلي الجزائر بالمشرق العربي ؟ أم عن مولود الدبلوماسي الشاب الذي لايغريه شبابه أوثقافته أو دبلوماسيته ، فيتباهى ويتفسخ ويتبذل ، ويحرص على أن يكون الدبلوماسي الثوري الملتزم ؟ أم عن مولود الذي تقلد المناصب الراقية ، والمراكز الهامة في الدولة والحزب ، والذي قضى بداية الاستقلال يبحث عن شقة تؤويه ؟ أم .. أم ..

الأحاديث عن مولود قاسم صعبة ، لأنه حياة حافلة بجلائل المآثر والأعمال ، وبالمواقف التي لايستطيع أن يقفها إلا مولود الذي لايجيد فنَّي النفاق والمجاملة .. الوظائف التي تولاها حساسة وعديدة، وشخصيته فيهامناضلة أحيانا ، غامضة أحيانا ، ومعقَّدة في بعض الأوقات .. يُقبل على العمل وقد جاوز الخمسين فتخاله ابن العشرين ، ويعزف عن العمل ويُضرب عن المكتب فتظن أن الشخص مقبل على الانتحار . يحرص على النظام ولاتجده في مكتبه المليء بالأكداس م ن الملفات والمراسلات ، والغريب أنه يهتدي إلى كل ملف أو مراسلة بسرعة ، وبدون حاجة إلى مفاتيح الإرشاد . يتشدَّد مع موظفيه ويلعنهم أحيانا، ويلعن نفسه ، ويحاسبهم حسابا عسيرا عن النقطة إن لم تحترم ، وعن الفاصلة إن لم توضع في مكانها ، أما إذا ارتكبوا أخطاء فيا و يحهم ، والأخطاء عنده لاتنقسم إلى أخطاء خفيفة وأخطاء ثقيلة . كلها عنده من الوزن الثقيل ، وقد تعوَّد على ذلك منذ كان طالبا بالقاهرة يحرر لممثلي حزب الشعب الجزائري المذكرات للمنظمات الجهوية والعالمية وإلى الهيآت العربية ، إلى جامعة الدول

العربية وهيئة الأمم المتحدة ، لكنه مع تشدده مع موظفيه ، لايحمل لهم في قلبه الكبير حقدا أو ضغينة ، بل كان يمنح الموظفين الذين يُظن أنه غير راض عنهم نقاطا ممتازة ، وترقيات ، وهذا نابع من نفوره ومقته للنميمة ونقل أخطاء الموظفين إلى الجهات العليا .. مما يدل على صفاء السريرة ، والتعالي عن الأحقاد ، تتوقف فورته عند تفجير ما في داخله من غضب وثورة ، ولعل من أبرز ميزاته الصراحة ، والشجاعة لمواجهة الموظف العاجز بنقصه ، وإرشاده إلى تحسين مستواه أو تغيير الوظيفة ، لفائدة الموظف ، ولفائدة البلاد .. تتأمله وتلاحق ملامحه وسحناته فترى اله دوء والرصانة ، ثم سرعان ما يلبس لباس الصرامة والجد،إذا حضربين يديه عمل أو كُلِّف به .. وهو حين يتحدث في المجالس الخاصة ، يمتِّعك بغزارة معلوماته ، و بنكاته ونوادره ، وبقهقهته العالية حتى تتساءل بينك وبين نفسك : أهذا هو مولود الذي كنتُ أراه منذ قليل عابسا مقطبا جادا صارما ؟ . يقرأ عليك محفوظاته من الأدب العربي في الفخر والوطنيات والإسلاميات ، حتى تقول بأن الرجل لايحفظ غيرها ، وإن أتيحت لك فرصة مرافقته في سفر أو مؤتمر، فإنك تعجب ، إن لم أقل تدهش لذاكرته القوية العجيبة الشبيهة بآلة التصويرالتي لاتترك لقطة إلا وتختطفها ببيت من الشعر أو قطعة من النثر الفني ، فهو يختطف المناسبة أو المنظر الذي يصادفه بتعليقات من محفوظاته أو ذكرياته أو تجاربه ، وكأنه يقرأ في موسوعة مختزنة في رأسه ..

فهل بعد هذا يستطيع أن يلمَّ كاتب بحياة مولود وهو صورة فريدة لاتتكرر بكل مافيه ا من محاسن لاتعد ولاتحصى ، ومن هنات معدودة يحسبها الأغبياء هنات ، وهي من علامات العبقرية ؟ .. □

مولود قاسم نِصفُ قرن من حياة الجزائر ، يمثل أثرى عهد عرفته الجزائر وعيا .. ونضالا .. وثورة .. واستقلالا .. عاشه مولود مزيجا من العواطف ، وشعلة من الذكاء ، وشحن ة من الجِد والنشاط ، وحزمة من الإبداع ، والإنتاج ، والمبادرات ، لأن دستوره الذي آمن به وطبقه في كل مراحل حياته هو قول الله تبارك وتعالى : " وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله

والمؤمنون " .. وهو باختصار : إنجازات حية ماثلة في المعْلم الثقافي الهام " الأصالة" التي كان يشرف عليها تبويبا وتنقيحا ، وله في ذلك نوادر لاتقل عن نوادر المفكرين الكبار في العالم ، و في عشرات الآلاف من خريجي "المعاهد الأصلية " التي ازدهرت بنسبها المرتفعة في امتحانات الباكالوريا ، رغم المضايقات ، وفي آثار وأصداء "ملتقيات الفكر الإسلامي" .. فالحديث عنه حديث عن تاريخ الجزائر في نصف قرن زاخر بالأحداث ..

لهذا لاأورِّط نفسي وأتيه في متاهات مولود .. وأكتفي في الحديث عن هذا الصديق ـ الذي أعتبره وبموضوعية من الرجال القلائل في الجزائر ـ بالاقتصار على بعض ذكرياتي معه منذ أن عرفته .. لأن ذلك قد يسهِّل البحث مستقبلا ، لمن يتصدَّون لدراسة هذا الرجل الذي غادر عالمنا ونيران المحنة الكبرىتتآكله ..

وسوف أهتم بمرحلته الزيتونية التي يعود إليها الفضل في تكوينه الثقافي العربي ـ الإسلامي المتين، وهذا حسب اعترافه .. وسأقف عند بعض المحطات ذات العلاقة بشخصي ته الثقافية والوطنية والثورية .. وسأقف عند رفاقه الشهداء الذين أحبَّهم وأحبُّوه ، وتأثر بهم وتأثروا به ، وعاش صديقا حميما لهم يوم كانوا أحياء ، وظل وفيا لهم بعد استشهادهم ، يذكرهم ، ويشيد بفضلهم ، ويعتقد أن "ضريبة بقائه على قيد الحياة تتطلب منه العمل أضعا فا مضاعفة ، وأن يقوم بعمله وأعمالهم ، وكأنهم على قيد الحياة ، عساه يرضي الرفاق الشهداء " وهذا جانب هام لايعرفه الكثيرون عن مولود .. إذ من العقوق أن لايتعرض الإنسان لهذه النماذج الرائعة التي نذرت نفسها للجزائر وللثقافة وللحرية والمبادئ .. ووفت بالنذر.. وانتقلت إلى عالم البقاء محافظة على العهد ..

مولود في تونس وبداياته :

لم تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها في الجزائر إلا بحوادث دامية، هي حوادث ماي 1945 . صدمت الشعب الجزائري بمناضليه وشبابه المتحمس الذي كان يبحث عن سبيل لإثبات الذات ، ويتطلع لحياة أفضل ، فإذا به يصاب بمصيبتين في الآلاف من الضحايا

والشهداء ، ويصاب في وحدته الوطنية التي تعرضت لشرخ لم يعرف لها الشعب مثيلا قبل 1944.. ومع ذلك ، لم تنل قساوة الحوادث وفظاعتها من معنويات الشعب الجزائري، وإنما كانت حافزا للتفكير جديا في وسائل أكثر نجاعة لتقو يض أركان الاستعمار الغاشم ، فاتجهت الجهود للعمل المسلح ، وقد أسفرت عام 1947 عن ميلاد " المنظمة السرية " واتجهت إلىالاهتمام با لتعلُّم والتعليم بالعربية والفرنسية ، وأقبلتْ بصورة واضحة على المدارس الحرة التي قامت بدور لايستهان به في ميدان الوعي الوطني ، وا لتي أعادت للثقافة العربية . الإسلامية مجدها ورونقها . وفي إطار الرغبة والإقبال على الثقافة الوطنية الأصيلة المضطهدة ، توجهت بعثات وأفراد إلى الخارج وإلى تونس بصفة خاصة . ومن المعروف أن الطلبة الذين التحقوا بمعاهد وجامعات المشرق العربي وتونس والمغرب ليست لهم خلفيات أو نوايا الالتحاق بوظائف الإدارة الاستعمارية ، ولا بمشاريعها التي تصنع عملاء . ومن هنا فدافعُهم إلى التغرب في طلب الثقافة دافع وطني ، وإقبالهم عليها إنما هو إقبال من أجل إحياء الثقافة الوطنية المقهورة فقط . فهم من هذا الجانب لايحتاجون لشهادات ت ثبت وطنيتهم .. ولهذا عرفت الجامعة الزيتونية بعد الحرب العالمية الثانية أو بعد حوادث ماي إقبالا غير معهود من الطلبة الجزائريين ، وميزةُ دفعات ما بعد الحرب أن طلبتها أصغرُ سنا من دفعات ما قبل الحرب، وقد كان الطلبة الجزائريون في الماضي يلتحقون بالزيتونة في أعمار تتراوح بين الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين فما فوق، والبعض يلتحق بها بعد الزواج ، ولربما بعد الإنجاب .. وأول من بادر بإرسال بعثة من طلبة صغار السن ، هي " مدرسة التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة "، وفاء لرغبة رائد النهضة الجزائرية الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي كان أول من فكر في مشروع إرسال البعثات العلمية إلى المشرق العربي للنهل من الثقافة العربية ـ الإسلامية، إلا أن المنية عاجلته ، وحالت بينه وبين تحقيقه ، فقام مصلحو مدرسة التربية والتعليم بإحيائه بعد سنة ونصف من وفاته، فهي مأثرة من مشروعه الضخم الذي كان يعِدُّ نفسه للقيام به لو أمهله القدر ..

أحدث التدفق الجديد إنعاشا وحيوية في الوسط الطلابي الجزائري ، مما جعلهم يتدارسون ويهتمون بوضع بلادهم حاضرا ومستقبلا ، وفي وسيلة للمساهمة في النضال الوطني ، إذ كان لحوادث ماي ، والغليان العالمي ، والاحتكاك بالمنظمات الثقافية والسياسية والنقابية في تونس دخل في بعث الوعي الطلابي، ودفعِ الطلاب الجزائريين إلى التعبير عن وعيهم بمبادرات وطنية ، لم يتحدث عنها تاريخنا المعاصر ، من ذلك مساعيهم لوقف التدهور السياسي المتمثل في دخول زعماء الأحزاب والهيآت في مهاترات حزبية ، وفي صراع خطير العواقب على مستقبل الحركة الوطنية، لاسيما بعد إنشاء فرحات عباس حزبه " الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري " ، في وقت كان الشعب الجريح ينتظر وحدة أقوى متانة من وحدة " أحباب البيان والحرية " التي تأسستْ عام 1944 ، والتي بفضلها ترسخت الفكرة الوطنية ، وتعمَّقت في النفوس ، وظهرت آثارها في المعاملات اليومية . أرسلت المجموعة الطلابية الزيتونية ـ ولم يكن لها يومذاك تنظيم ـ شخصا يحمل رسائل إلى الزعماء ، فيها دعوة إلى "نبذ أسباب الخلاف ، والعودة إلى القاعدة التي اتفقوا عليها في " البيان " و" ملحقه " .. كي لا تتوسع هوة الخلاف . . وحتى لا تصاب الوحدة بنكسة ، تنجر عنها آثار تنعكس على معنويات الجماهير الجزائرية التي فقدت توازنها بعد نكبة الحوادث المؤلمة ! .. " فلا تضيفوا لهذه النكبة ما هو أسوأ " وقد استقبل كل زعيم دعوة الطلاب بمزاجه الشخصي .. وهناك مبادرات تدل على أن طلبة الزيتونة في ذلك العهد ، كانوا أكثر الطلبة في الخارج نشاطا وطنيا . لايزال غير معروف . قام به أفذاذ منهم من قضى نحبه مستشهدا ، ومنهم من لايزال على قيد الحياة أطال الله أعمارهم .

كل هذه العوامل والأوضاع شجعت الطلبة لأن يبادروا ببعث "جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين " التي توقفت بسبب الحرب ، وقبل ذلك، بذلوا مساعي ليتجمعوا في مدرسة واحدة ، فاختيرت لجمعهم مدرسة غير مرغوب فيها بنهج الركاح ، ووجد الطلاب أنفسهم مضطرين لقبولها على علاتها ، لحسنة واحد ، أنها تجمعهم، ، عُيِّن على نظارتها شاب تونسي يدعى

يونس درمونة ، ومهمته الإشراف على المدرسة ، ومراقبة تحركات الطلبة ، والحيلولة بينهم وبين القيام بعمل سياسي أو أي نشاط فيه إخلال بالقوانين العامة . إلا أن هذا الناظر وهو من خيرة مناضلي الحزب الحر التونسي، ومن الوطنيين المؤمنين بمغْ ربة القضية الوطنية في الشمال الإفريقي ، تجاوب مع الطلبة ، وكان لهم سندا وعونا ، يرعاهم ويتغاضى عن هفواتهم وتجاوزاتهم ، معتبرا نفسه فردا منهم . لم يكن يجهل أن بعض الوطنيين المغضوب عليهم من الشرطة الفرنسية ، والهاربين من العدالة الفرنسية بالجزائر كانوا يلج أون ويختبئون في المدرسة . تحولت المدرسة إلى قلعة جزائرية يؤمها الجزائريون على اختلاف أنواعهم . ولم نكن ندري يومها أن يونس من الزعماء السياسيين التونسيين المتكتِّمين ، ولم نكن ندري أنه في يوم من الأيام يتزعم جناحا من أجنحة المعارضة لسياسة بورقيبة ، ويؤْثر الغربة والموت في القاهرة على الاستسلام لبورقيبة .. كان على صلة وثيقة بمولود قاسم ، ولما التحق هذا بالقاهرة وجده ممثلا لتونس في الشرق العربي مقيما بالقاهرة ، فتوطدت العلاقة ، واستعان به مولود كثيرا ، خاصة في الميدان المادي .كما استفاد منه يونس أدبيا ، وهذه الصفحة من الصداقة والوفاء تحتاج إلى وقفة ..

في هذه المدرسة ، يحُل كل طالب جزائري عند وصوله إلى تونس للدراسة .. ذات يوم دخل علينا شابان لايعرفان عن العاصمة التونسية إلا عنوان مدرسة نهج الركاح : أولهما : مولود قاسم ، شاب جميل ، أنيق، على رأسه طربوش مائل ، يبدو عليه الحياء والخجل ، يحمرُّ وجهه كلَّما سئل ، أو كلَّما طُلب منه الكلام ، يشع من عينيه بريق خاص ، وكان شبيها في حيائه وذكائه بعيسى المسعودي ـ رحمه الله ـ .. وثانيهما الحارث بن ثريدي ، لايتمتع بجمال مولود ، ولا بأناقته ، ولكنه محدِّث لبِق ، حلو ا لمعشر، خفيف الظل كما يقول المثل ، خزانة من المحفوظات ، يكاد الذكاء يقول أنا هنا .. استقبلناهما ، ورحبتُ شخصيا بهما ترحيبا خاصا ، ربما لأني كنت أصغر طلبة المدرسة ، فكيف لاأرحب بصغار ، يؤنسني وجودهم .. أراد أحد الطلبة ـ من كبار السن ـ الموجودين بالمدرسة ا حتواءهما بما أنهما أبناء بلدياته ، ففضلا الاندماج مع غير أبناء قريتهما ، وكانت علامة على تمتعهما بروح وطنية

عالية تترفع عن الجهوية والتعصب القبلي . كنت أقرب إليهما من غيري ، لتقارب السن ، وإمكانية التفاهم، فتكونت بيننا علاقة وثيقة لم تنقطع . وبحكم أني في الثانوي وعلى وشك إتمام الدراسة بالزيتونة ، كُلفت بتنشيط الندوات لطلبة المرحلة الابتدائية ، وأول ندوة حضرها قاسم والحارث ، كانت حول قصيدة محمد الهادي السنوسي " هي الجنة الفيحاء " التي قال فيها :

إذا كان همي هو همك ، فلْيكن
عذابك في دور الكفاح عذابي

وليس لنا إلا الجزائر موطن
ترابُك فيها واحد ، وترابي
هي الأم واست في الصباكل مرضع
فلا برَّ من أبنائها المتصابي

كما أن أول قصيدة في افتتاح الندوة الأسبوعية الأولى لدفعة الفقيد محمد المسعودي (عيسى المسعودي) ـ كمسؤول عن لجنة الخطابة في جمعية الطلبة الزيتونيين الجزائريين ـ هي قصيدة الأمير عبد القادر :

تسائلني أمُّ البنين ، وإنها
لأعلم من تحت السماء بأحوالي
.....
وعني سلي جنس الفرنسيس تعلمي
بأن منا ياهم بسيفي وعسا لي

كما كنت ألقنهم الأناشيد الوطنية والحماسية ، في جو وطني حماسي .

في هذه البيئة الثقافية الأخوية ترعرعت الروح الوطنية بين الطلبة وتوثَّقت الروابط ، وصرتُ لطلبة الابتدائي قدوة ، يبادلونني الاحترام ، ويستشيرونني في الكثير من أمورهم . وكان بين مولود والحارث تنافس في الجد والمثايرة والتحصيل ، وكثيرا ما كانا يطلعاني على بعض ما يكتبان . . كانت هموم الوطن تستغرق أكثر أحاديثنا ، نتبادل فيها الآمال والأحلام ، ولمولود حصة كبير في الآمال التي كنا نخالها أحلاما .. ومن خلال كتاباتهما ، والنقاش معهما ، أمكنني أن أتعرف على نفسية وانشغالات واتجاهات كل منهما ، فمولود كان يهتم ا هتماما فائقا بتاريخ الجزائر والعا لم الإسلامي والعربي وبسيَر الزعماء والعظماء في العا لم . و من المجلات الشهيرة في ذلك العهد والتي تمثل مدارس في ميدان الفكر والثقافة : "الرسالة " التي يديرها أحمد حسن الزيات ، و "الثقافة " التي يديرها أحمد أمين ، و " الكتاب " التي يشرف عليها عادل الغضبان . بمجرد وصولها يشتريها واحد منا ، فيلقي مولود نظرته الأولى على الفهارس ، ثم ينصرف رأسا إلى مواضيعه المختارة في التاريخ والسيرأو التراجم . يعجب بإسلاميات مصطفى صادق الرافعي ، ومتانة أسلوب أحمد حسن الزيات . . في حين أن الحارث يقرأ كل ما يجده من المواضيع ، ويقبل على الروايات، ويحبِّذ الكتابات الأدبية السلسة ، ككتابات المازني وزكي مبارك ، وينفر من التقعُّر والكتابات الصخرية التعابير . . وأسلوبهما الكتابي فيما بعد كان خاضعا لهذه الميول والتأثرات ، ويمكن لأي كان أن يتعرف على شخصية كل واحد منهما في شبابهما ، فمولود حين يكتب المواضيع التاريخية والسياسية يجيد إجادة واضحة ، قل من يجاريه فيها لاعتماده على معلومات قيمة وجديدة بالنسبة لأقرانه ، وتتراآى بين ثنايا سطورها شخصيته البارزة، كما تتَّضح في الكلمات المختارة ، والفقرات المنتظمة ملامحُ التطلُّع إلى الطلائعية ، و تُشتمُّ منها رائحة التمرُّد والرفض لبعض المظاهر والقضايا والأوراق الصفراء ، مع أنه في مظهره العادي أو في أحاديثه يبدو عليه الهدوء التام ، فهل كانت جينات الثورة تتفاعل وتتكون في داخله ، ولا يفصح عنها في حديثه أو تص رفه ، وإنما يتناجى بها مع قلمه ويكتبها ؟ في سنته الثانية أو الثالثة بالزيتونة كتب أول قصة ظل يعتز

بها ، وهي قصة تقدم الصورة الحقيقية الصادقة لمولود ، بآماله وأحلامه . أملاها عليه الواقع الطلابي من ناحية وآلام الشعب الجزائري من ناحية ثانية ، فقد كان يتردد ع لينا بعض قادة حزب الشعب الجزائري ، واستطاعوا بالمعلومات التي يقدمونها لنا أن يقنعونا بوجهة نظر الحزب ، وبعقلانية المطلب الاستقلالي . ونتيجة هذه التأثرات كتب مولود . الذي كان في ماضيه معجبا بشخصية فرحات عباس ومقالاته ـ قصته الرائعة بالنسبة له كطالب في التعليم الابتدائي ، وتعتبر باكورة إنتاجه المنشور .. لقد توقَّع ، في قصته ، أن الجزائر ستثور وستستقل .. أطلعني عليها ، وأبديت له بعض الملاحظات ، وسلم لي نسخة منها .. ومما جاء في هذه القصة :

" ... وفي ليلة ليلاء ، غدافية الإهاب ، حالكة الجلباب، هاجم أولئك الأجانب (يعني الفرنسيين) بدافع الحقد الديني والنهمة الاستغلالية ، وانقضوا بقضهم وقضيضهم على تلك الأحلام العزلاء ، فدافع أهلها حتى النقطة الأخيرة ، وأخيرا سقطوا في أيدي القوة الغاشمة ، فعمد أولئك الأجانب إلى نزع لواء الأمة من كل مكان وقع فيه ، وما أهوله من منظر.." (الثمرة الثانية لجمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين .. عام 1948).

تطرَّق في هذه القصة إلى المقاومة الجزائرية الباسلة ، وإلى الانتفاضات الشعبية العارمة ، ثم عرَّج مُشيدا بنضال الأمير خالد ـ دون ذكر اسمه ـ مكتفيا بأنه " حفيد الأمير " ، وانتهى إلى نضال مصالي الحاج ـ ايضا دون ذكر اسمه . ، معتبرا إياه " خليفة الأمير " و " قائد الأمة " ، وتحت إمرة هذا القائد :

" انفجر بركان الثورة ، يرسل بشظاياه إلى قلوب وجباه المغتصبين ، واندلع لهيبها يلتهم جوانبهم ، وبين عشية وضحاها صفا الجو ، وصحا الميدان ، بفضل ما أظهره أولئك المجاهدون من الاستماتة والاستبسال في ساحة الجهاد ، وأصبح أبناء الأمة هم أبناءها ، ولم يبق من أولئك المغتصبين وأذيالهم المتشيعين إلا نفر قليل ، فقامت محكمة التفتيش تحت إشراف قضاة ثقاة ، فعاقبوا أولئك الخائنين امتثالا لقول أحد أبناء الأمة المخلصين :

واقلع جذور الخائنيــن فمنهمُ كل العطب

وجوزي كل وطني مخلص بالسيادة في وطنه بفضل جهاده .. "

لقد تحققت آمال مولود .. إلا ما تعلق منها بمحكمة التفتيش أو محكمة التاريخ فإنه لم يتحقق إلى الآن ، ولا يزال الخونة يعبثون بوحدة الأمة وبالطاقات الحيّ للبلاد ا ..

الوسط الطلابي ورفاق مولود :

المثل يقول : " دلني على رفيقك ، أعرفْك " ، ولمولود رفاق عرفتهم الساحة الوطنية نشاطا وإخلاصا ، واستشهادا . . تأثر بهم مولود وتأثروا به ، وأخلص لهم وأخلصوا له ، وظل وفيًّا لهم بعد استشهادهم بالنذر على نفسه أن يعمل عمله وعملهم كأنهم لايزالون أحياء . .

أول هؤلاء الرفاق : الحارث بن ثريدي وهو من مواليد قلعة بني عباس ، حفظ القرآن ، وتلقى دراسته الابتدائية على والده الصالح الشيخ يحيى العوادي ، الذي كان له فضل توجيه ولده الحارث وتلميذه مولود إلى تونس ، ومرافقتِهما إلى تبسة لاجتياز الحدود الجزائرية التونسية بالوسائل غير القانونية ، كما تلقى (الحارث) معلوماته الابتدائية أيضا على الشيخين بلقاسم بن رواق ، ومحمد واعمر جلواح . انتقل إلى تونس حيث التحق بالزيتونة رفقة صديقه مولود قاسم ، وشارك في النشاط الطلابي وفي خلايا حركة الا نتصار للحريات الديمقراطية . تخرج من الزيتونة بشهادة التحصيل عام 1952، وإثر تخرجه عاد إلى الجزائر فعينته " حركة الانتصار للحريات الديمقراطية " معلما بمدرسة الرشاد بالعاصمة ، وكان إلى جانب التدريس يحرر في جرائد الحزب " صوت الجزائر " " المنار " " صوت الشعب " ، وله بها مقالات رائعة ، وقصص هادفة ، وقد دعا في مقال له بصوت الجزائر إلى أدب جزائري جديد ، تحت عنوان " نحو أدب جديد ، ومما جاء في هذا المقال : " نحو أدب جزائري نحتل به مكاننا في الأدب العربي . نحو أدب جزائري نعطي فيه لمن يقرأنا صورة حقيقية عن عواطفنا وحياتنا ، عن آلامنا

وآمالنا صورا من السخط الذي يجيش في صدور الشباب ، والألم الذي توحي به أعين الشيوخ والنساء والأطفال

" نحو أدب جزائري يستطيع الناس إذا ذكروا الأدب ، واستعرضوا نتاج القرائح أن يقولوا : "هذه الجزائر "

يتمتع بذكاء خاص، يكثر من المطالعة ، شأنه شأن رفيقه ، ويكتب في مختلف المواضيع التي تطلب منه أو تعِنُّ له ، ويبرز فيها ، لأنه ينطلق في صياغة أفكاره من نقطة يحددها ، ثم يتناول عناصرها بتناسق وتسلسل، ويُسبغ عليها بأسلوبه الرشيق طابعا أدبيا ، ينبئ بمستقبل زاهر في ميدان الفكر والقلم ، وفعلا ، كان من الكتاب المرموقين في أسبوعية " المنار " ذات الميول لحزب الشعب الجزائري وله فيها مقالات كثيرة ، بعضُها باسمه الشخصي . . منها هذه النماذج:

كتب عن الثورة المصرية معتبرا إياها انقلابا :

" هو فجر لامحالة ... والأيام هي التي تقول كلمتها أهو فجر صادق ، أم هو فجر يسبق الفجر الصادق من خيوط النور التي تحاول الظهور ، ثم تغلبها جحافل الظلام .. ولانظنه إلا فجرا صادقا ..

"فلا مكافحة والصفوف غير ملتئمة ، فالتطهير الداخلي أولا ، ثم الجهاد ثانيا ، وهكذا كان يوم 23 يوليو يوم الشعب المصري ، أزاح عنه كابوسا ثقيلا .. وأعلن أنه لن يرضى بعد اليوم ببرلمان مزيف ، وملك طاغية ، وأنه لن يبقى بعد اليوم عبدا لطغمة من البطِرين ، يشقى لحسابهم ، ويعرق لينعموا بالمراقص والكازينوات الأوروبية " (المنار العدد 9 السنة الثانية . 15 أوت 1952)

استهل كلمته في مقال آخر عن المولد النبوي بقوله :

" تظلنا في هذه الأيام ذكرى المولد النبوي الشريف .. وحري بنا أن نعيش يوم المولد في جو يشبه ذلك الجو الذي كانت تعيش فيه الجزيرة العربية .. وقد اتصلت الأرض بالسماء ،

ونشرت الروحانية لواءها ، تكف من غرب المادة.. وترجع الإنسانية إلى حظيرتها بعد ما أبعدته عنها القرون الطوال " (المنار . العدد12 . السنة الثانية28 نوفمبر 1952)

الرفيق الثاني الذي لازمه مولود وواصل معه الدراسة في القاهرة : هو قاسم زيدون ، من وهران ولقبه في الحقيقة زدور ، ووالده هو العالم الجليل الصالح الشيخ الطيب المهاجي ، وقد تلقى منه دراسته الأولى . قبل أن يلتحق بالزيتونة . ناضل في صفوف حركة الانتصار للحريات الديمقراطية قبل مجيئه إلى تونس ، وألقي عليه القبض وسجن بمناسبة حوادث ماي 1945 ، وكان له تأثير بارز على مولود وطنيا بما له من تجربة الاحتكاك والمواجهة مع الاستعمار وأعوانه في وهران ، ولهذا سارا معً ا مسيرة ثقافية وحزبية ونضالية واحدة فيما بعد . يمتاز زيدون بالمعلومات المتينة ، والثقافة الواسعة ، والرسوخ في النضال ، وكتاباته مشحونة بالأفكار الواضحة ، وأغلب كتاباته باسم مستعار ، مما يجعل العثور على إنتاجه الفكري صعبا . . وهذا مثال من تفكيره وإنشائه ، في إجابة على الاستفتاء الذي طرحته صحيفة " المنار " حول إمكانية الاتحاد . كتب زيدون :

" لعل من تقرير المقرر ، وتحقيق المحقق ، أن أبتدئ كلمتي ببيان ضرورة الاتحاد وعرض فوائده ، فيكفي دليلا على ضرورته ما تعيش فيه بلادنا من وضع شاذ ، وظروف عاتية ، وحسبنا برهانا على فوائده أنه لايرضي المستعمرين ..

أمام هذه الأخطار التي تهددنا في كياننا نرى لزاما أن نقيم اتحادا على أساس يحل مشكلتنا من أصلها ، ويضع الدواء في صميم الداء .. وهذا الأساس هو هل الشعب الجزائري يرضى أن يستسلم لذابحه ، أو أن ينتحر بسكوته أمام الأخطار . الأساس هو الإيمان بحق الشعب في تقرير مصيره في حرية . وما أبسط وسائل الاتحاد إن تحققت الإرادة في الاتحاد . . "

فالاتحاد في نظر زيدون ممكن وضروري ، لكن على أساس أن ينقذ الشعب من الأخطار ، ويحرره من ربقة الاستعمار ، وهو يرفض أي اتحاد بتنازلات تبعد الشعب الجزائر ي عن هدفه

التحريري، حين يشترط أن يكون الاتحاد على أساس تقرير الشعب لمصيره ، والفكرة نفسها هي التي تبناها بيان أول نوفمبر ..

تجمعتْ في زيدون صفات ومؤهلات لانتخابه رئيسا لجمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين ، وجعلت ممثلي حزب الشعب الجزائري في القاهرة يستعي نون به في التحرير والرأي ، رفقة رفيقه مولود عند ما التحقا بمصر، وقبل اندلا ع الثورة بأيام أرسلته الثورة إلى الجزائر للقيام بمهام لفائدة الثورة . فعلا ، نزل بوهران وبدأ تأدية المهمة المسندة إليه مارا ببعض المدن . ولما حل بالعاصمة ألقت عليه الشرطة القبض ، ومارست عليه تعذيبا فظيعا عساها تنتزع منه سرا ، ولما أخفقت في المحاولة ، رمتْ بجثته في البحر ، وعُثر على جثته في وادي الحراش أو الحميز . . وبذلك فهو أول شهيد مثقف في ثورة التحرير .

الرفيق الثالث : قاسم رزيق ، لم يكن ملازما لمولود ملازمة الحارث وزيدون ، و لكن كانت بينهما صلة نضالية متينة ، ورزيق من أبناء الوادي فيما أظن ، عُرف بوطنيته الصلبة ، ومواقفه النادرة ، وظرفه وروحه الاجتماعية . انتُخب أيضا رئيسا لجمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين ، وبعد إتمام دراسته بالزيتونة ، ودخوله إلى الجزائر اختير عضوا في اللجنة المركزية لحركة الانتصار للحريات الديمقراطية . وعند اندلا ع الثورة التحق بها ، ولدى الأخ الفاضل الطاهر لعجل معلومات وافية عن كيفية استشهاده رحمه الله . .

لهؤلاء الرفاق بصمات في ذهن ونفسية مولود ، جعلته يعتقد أن لهم عليه دينا ، يجب أن يفي به.. وقد وفى به في انهماكه في حب الجزائر والعمل من أجلها ، فقط ..

شخصية مولود

تلك هي شخصية مولود في تونس .. ولئن كانت بدايات تكونه في تونس ، فإن بداية تفتح شخصيته ظهرت في القاهرة ، وكتاباته المتعددة والمتنوعة فيها عبارة عن ملامح مستقبله الفكري .

كتب عباس محمود العقاد : " لكل شخصية إنسانية مفتاح صادق يسهل الوصول إليه أو يصعب، على حسب اختلاف الشخصيات . . فربَّ بيت شامخ عليه باب مكين ، يعالجه مفتاح صغير، ورب بيت ضئيل عليه باب مزعزع يحار فيه كل مفتاح " (عباس محمود العقاد . عبقرية عمر . ص 61) .

فالوطنية هي مفتاح شخصية مولود ، وهي الحياة الحقيقية ، يكتب بروح وطنية ، ويتكلم بالدافع الوطني ، وينشط مستمدا ديناميكيته .كما يقول . من الحافز الوطني ، ويمكن لأي شخص أن يستثيره أو يهدئه بالوطنية . ويلمس الدارس لحياته هذه الظاهرة في كل كتاباته وإنجازاته . .

أرسل من القاهرة مساهم ة في الإجابة على تساؤل وجهه عبد الوهاب منصور إلى الأدباء بعنوان " ما لهم لاينطقون ؟ " . صدر ب "البصائر " وقد أثار ردود فعل من العديد من الكتاب والأدباء من بينهم أحمد رضا حوحو وعبد الحميد مهري اللذين لم يتفق معهما مولود ، مع أن مهري كان المسؤول عنا كطلبة بتونس ، فكتب تعليقه تحت عنوان " ثقوا بأنفسكم ياقوم .. " استهلَّه بقوله :

" قلت في مقالي الأول أني أعلل هذا الركود الثقافي والعقلي في الجزائر تعليلا مختلفا عما رآه الأستاذان حوحو ومهري ، وقلت إني سأعالجه من زاوية خطيرة جدا تتصل بمقوماتنا وشخصيتنا كأمة له ا تاريخ طويل في الكفاح ، وماض حافل بالشخصيات القوية في مختلف الميادين .."

ومما جاء في مقاله :

" اكتبوا بالعربية كما هو واجب ، أو حتى بالفرنسية ، فهو على كل تاريخ دامٍ يزيده احمرارا كتابتُه بلغة أجنبية إظهارا للمأساة في أسود صورها كما كتب أهل الأندلس بالقشتالية " (المنار العدد 18 . السنة 2 . 27 فبراير 1953)

ومرة قدمه زميل له مصري إلى أحد أساتذة الفلسفة : " هذا جزائري .. ولكنه يعرف العربية"، فكتب في ثورة وانفعال مقالا بعنوان "الجزائر لاتعرف العربية " ، لم ينتقد الشرقيين الذين يجهلون أن الجزائريين يعرفون العربية ويتقنونها " أفضل منهم " أحيانا ، وإنما انتقدالكتاب الجزائريين ، فقال :

" نعم ، إذا كان أساتذتنا في الجزائر من كتاب وشعراء لايريدون الكتابة في السياسة والاجتماع والدين ، فليكتبوا في الحب والغرام ، وفي وصف الطبيعة في الجزائر ، وما أكثر المناظر الطبيعية الخلابة التي تستحق التسجيل " (المرجع السابق)

ومما رواه عن نظرة بعض البلدان العربية للجزائر قبل اندلا ع الثورة يوم كان مساعدا في مكتب المغرب العربي بالقاهرة :

" نشرت هناك مقالات في بضع جرائد . لاأذكر الجرائد ، وإلاَّ عُرف البلد ، ماذا قالوا لنا ؟ قالوا بأن الأحسن ألاَّ نتكلم اليوم عن الجزائر ، لأن الجزائر جزء من فرنسا ، جزء لايتجزأ من فرنسا ، ووضعُها القانوني صعب جدا ، فالأحسن ألا نتكلم عنها .. " (مولود قاسم . ملتقى الفكر الإسلامي السادس . م 2 . ص 117)

ولشدة شوقه لأخبار الجزائر، كان في غربته يتلهف لقر اءة الصحافة الجزائرية بشوق عارم ، فإذا بها لاتزوده إلا بأخبار الشرق والغرب لابأخبار الجزائر فيثور عليها ، ، ويوجه كلامه إلى الكتاب عاتبا:

" إنكم ياقوم ليست لكم إذاعة كبقية أرض الله ، وليست لكم كتب أو مجلات كبقية أرض الله ، وإذا سنحت لكم الفرصة للكلام عن ا لجزائر في هذه النشرات ، أفتصرون أيضا على أن لاتكون للجزائر ، وعلى ألاَّ يُسمع عنكم خبر كبقية أرض الله " (المنار .العدد40 . السنة 3 . 10 أبريل 1953)

الانتقال إلى القاهرة :

في أواخر الأربعينات أجرى الأمير عبد الكريم الخطابي اتصالات بالدول العربية باسم لجنة المغرب العربي ، لاستقبال طلبة المغرب العربي في جامعاتها ، وحتى في كلياتها العسكرية ، فما كان من بعضها إلا الترحيب بالفكرة ، وشرعت في استقبال المتقدمين لها . وكانت الكلية العسكرية العراقية السباقة في استقبال الشبان المغاربة المبعوثين عن طريق الأمير عبد الك ريم الخطابي أو عن طريق أحزابهم الوطنية الاستقلالية لتكوينهم عسكريا ، وإعدادهم للثورة ، ومن الشبان الجزائريين الذين التحقوا بهذه الكلية ماضي لمبارك (المعروف بتركي شباطة) في أواخر عام 1948 أو 1949. وتخرج منها ضابطا ممتازا ، ساهم بمعلوماته العسكرية في تنظيم الجيش الليبي ، ولما اندلعت الثورة التحق بها ، فاستشهد في إطار التصفيات داخل الثورة ، وهو في طريقه لاستلام مسؤوليته الثورية ، (انظر ترجمة حياته في كتاب " فوج الأمير خالد " تأليف محمد الطيب أيلول ، وعلي عروة . ص 191) ومن الواجب أن يعاد له الاعتبار ، كما أعيد لغيره ! .. كما كان من أوائل الطلبة الذين التحقوا بكلية الآداب العراقية علي شكيري ، واستشهد كزميله لمبارك في تونس بعد التحاقه بالثورة في إطار التصفيات أيضا لماذا لايعاد له الاعتبار كما أعيد لمن قتلوا معه ؟ .. واستشهد عدد آخر من زملائهما في الميدان .. مما يدل على أن الطلبة المعرَّبين لم ينتظروا اندلا ع الثورة ليلتحقوا بها ، ولم ينتظروا ماي 1956 لينضموا إلى العمل الثوري بل انضموا إليها مع بداية الخمسينات ، وعدد الشهداء منهم قبل الإعلان عن إضراب الطلبة دليل حي ! . .

وهناك بعض الطلبة اختاروا متابعة الدراسات العلمية والأدبية ، ومن بينهم قاسم مولود ، وقاسم زيدون ، وهما اللذان أرسلا أو أزمعا الانخراط في الكلية العسكرية ، ومولود أعد نفسه لكلية الطيران ، وإذا بهما يوجهان في القاهرة ، زيدون لكلية الآداب ، ومولود لكلية الفلسفة ، فهل للشاذلي المكي وخيضر دخل في هذا التوجيه ؟ الذي يهمنا هنا أن الشابين كانا مثالاً للجد والاجتهاد ، وموضع إعجاب ممن عرفوهما، وكان مولود معجبا بأشخاص معينين : شكيب آرسلان ، وقد قلَّده في الإكثار من الكتابة ، والدفاع عن القضايا العربية الإسلامية ،

والتعريف بها ، بحماس وموضوعية وبدو ن توان أو تقصير ، كما كا معجبا بزكي مبارك الذي كان يلقب نفسه " الدكاترة " . قال عنه مولود : " وهو كاتب أقدره وهو الوحيد الذي احتفظ للأدب العربي بشخصيته ممن درسوا في الغرب وخاصة في فرنسا " وقرر مولود الاقتداء بزكي في الترشح لعدة مجالات معرفية للحصول على العديد من الشهادات العالية إلا أن حياته النضالية عاقته عن تحقيق أمانيه ، وإلى جانب هذين كان معجبا بعلي عبد الواحد وافي ، وعثمان أمين كأستاذين له ..

لم يتوقف الشابان نضاليا بانتقالهما إلى القاهرة ، بل واصلا نضالهما جنبا إلى جنب مع ممثلي حزب الشعب الجزائري ، مع الشاذلي المكي رحمه الله أولا ، ثم مع الثلاثي : محمد خيضر رحمه الله وأحمد بن بلة ، وحسين آيت أحمد ، وكثيرا ما يستشاران ويشتركان في القضايا الهامة رأيا وكتابة. . كما كانا يقومان بأنشطة سياسية وثقافية ويرسلان في مهام إلى خارج مصر من أجل التعريف بالجزائر وقضيتها ، ويحرران المذكرات الموجهة إلى المنظمات الإقليمية والدولية ، والمقالات في المجلات والجرائد المشرقية والجزائرية ، وغالبا ما كانا يوقعان بأسماء مستعارة ، وقد أدليا برأيهما في استفتاء " المنار " حول موضوع "إمكانية الاتحاد ، وأسسه ، ووسائله " ، والاستفتاء اقتضته ظروف البلاد آنذاك ، بما حدث من تصدع خطير في الوحدة الوطنية من جراء صراع الأحزاب واحتداده على أعمدة صحافتها، وقد استعرضتُ نبذة من إجابة قاسم زيدون ..أما مولود فقد أجاب كغيره من طلبة عهده بالقاهرة وبغداد ، ويدلُّ جوابه على تطور ، لأنه تنبَّه إلى نقطة لم يتعرض لها غيره ، ولم يكن هو شخصيا مقتنعا بها أثناء دراسته في تونس، وهي وجود " آلات " مدسوسة داخل الأحزاب والتنظيمات، وكانت السبب الذي حال ويحول دون الاتحاد ، وانطلاقا من شغفه بالفلسفة استهلَّ كلمته بالاستشهاد برأي أرسطو:

" منذ أكثر من ألفي سنة حدَّد أرسطو في كتابه السياسة وسائل بقاء الاستعمار بأربع : التجهيل ، والإفقار، وبثِّ الشقاق ، ونزع الثقة بين أفراد الشعب . وهذا الركن الأخير هو أم

المصيبة في الجزائر ، ففي كل هيئة في الجزائر توجد آلات استعمارية تنخر في عظام الأمة ، وهي سبب الوسواس في الجزائر ، ومبعثُ الشقاق . فالاتحاد ممكن جدا عمليا إذا أقدمنا على خطة جريئة هي الاستغناء عن تلك الآلات .." (المنار . العدد 42 . ماي 1953)

إذا راجعنا وضعنا الراهن وجدنا أن هذه " الآلات " المندسة والمسخرة لاتزال تنخر جسم الأمة الجزائرية ، ولا تزال تشجع الا ستئصالية وتمزيق كلمة الشعب الجزائري .. ولولاها لما أصيبتْ فئات الشعب بجنون التخريب والتقتيل بفظاعة لم تخطر ببال أحد قبل اليوم ! ..

ولهذا ، فالمولود عند ما انخرط في العمل الثوري إنما كا ن بعمل لتحقيق حلم طالما لازمه ، فكان كتلة من النشاط ، ومثالا للانضبا ط الثوري، معلّقا أمله في انتصار الثورة على بقاء الوحدة الوطنية متماسكة ، ومن هنا كان يتجنب التكتلات تحت أي عنوان كان ، ويحذِّر من بوادر وبذور الشقاق في الصف الثوري . وهومن أجل مبادئه التي يؤمن بها ، لايتورع ولايخاف أن يقول كلمته في صراحة وعنف أحيانا ، ينفرُ من دعاة التكتلات الجهوية والثقافية والحزبية ، والمقياس الوحيد الذي يؤمن به ويحترمه هو إخلاص الشخص ، دون النظر إلى اعتبار آخر . . ولعل هذا أحد الأسباب في إبعاده عن مراكز القيادة أثناء الثورة ، وحتى من المشاركة في تحرير أدبياتها السياسية والعقائدية . مع أنه يستشار ، ألم يكن مرجعا في العديد من المناسبات ، وعنصرا فعالا خلال مفاوضات إيفيان ، باعتراف الأخ سعد دحلب ؟ ..

المولود مع بداية الاستقلال

التقيتُ بمولود في بداية الاستقلال صدفة . لم أعثر على مولود الذي عرفْتُه في منتصف الأربعينات ، بل وجدتُ مولودا آخر في لباسه ، وحركاته ، وأحاديثه . وأغرب ما لاحظته هو النشاط والحيوية ، والصرامة في الأوامر ، الطلاقة في الكلام ، لاتعثُّر ولاتلعثُم ولاخجل ، وحبٌّ للنكت والنوادر ، وهو المعروف بين الطلبة والأصدقاء قبل الثورة بالجد والعزوف عن المزاح . يحترمه المحيطون به بمافي ذلك مسؤولوه بدءا من محمد خيضر الذي لاحظت أنه يبدي لمولود تقديرا خاصا .. وكنتُ أظن أن التطورات أوالوصول إلى درجة معينة في المسؤولية

قد أنْستْه الماضي ، وإذا بهذه الشخصية التي توهَّمْتُها ، تعود بي بعد أن انفردنا إلى ذكريات الماضي ، وإلى رفاق الماضي ، وأثناء مزاحي معه قلت له :" انتقل إلى عالم الخلد الثلثان الصالحان ،(أعني قاسم زيدون وقاسم رزيق) وبقي الثلث .." لم يدعني أتمُّ كلامي ليقول بمرارة وحسرة : " وبقي الثلث الطالح .. ما أسعدهم وقد صانهم المولى عن هذه المناظر المخزية في الجزائر المستقلة .. ماكنت أظن أن الجزائريين يتقاتلون من أجل السلطة ، بل كنتُ أتوقَّع أن يتجنَّد المسؤولون لتطهير الأمة من عناصر الخيانة والفساد كي يكون الغرس مثمرا طيبا .." وكاد يبكي . أدركتُ ما كان يعنيه هذا الصديق الذي عاش يحمل هموم وطنه وأمته لآخر لحظة من حياته ، وفي الحين تذكرت مقاله الذي كتبه في منتصف الأربعينات ..

وبإلحاح منه التحقتُ بالعاصمة ، وباللجنة الوطنية لإعداد الموسم الدراسي 1962 - 1963 تحت إشراف المكتب السياسي ، وكنَّا نلتقي من حين لحين ، وأُفضي له بهمومي ، وبما يجري في الكواليس من مؤامرات على التربية عموما ، وعلى التعريب خصوصا ، وكان ذلك حافزا له لأن يدشِّن كتاباته بعد الاستقلال بمقال " تعريب الأمخاخ والقلوب " . قال فيه :

" فإذا أردنا التعريب فعلينا قبل كل شيء البدء بتطهير الأدمغة وتصفية القلوب لدى هذه الطائفة من مواطنينا ، من إخواننا في كل شيء إلا في هذه الأمساخ . فقبل استئصال هذه الزائدة الدودية لدى هذه الطائفة أي قبل تعريب الأمخاخ والقلوب ، لايمكن لنا النجاح في تعريب الألسنة .."

لم يتوقف عن الدعوة بحماس وصدق إلى التعريب منذ فجر الاستقلال ، وقد كان حريصا على أن يسير تعريب الإدارة والتربية في خط متواز ، وهذا ما جعله يعرِّب كل الإدارات التي تولاها ، ويخصص جهودا معتبرة كي تقوم المعاهد الأصلية بدورها في تأصيل الثقافة العربية الإسلامية ، ولم تكن المهمة سهلة في عالم لاتنام فيه أعين الأذناب الفرنسية . وإن كان بعض السُّذج يخالونها سهلة ويتطاولون في أحاديثهم بأنه م لو كانوا في مكانه لفعلوا .. وفعلوا .. لايسع المتتبع له في هذا الميدان إلا الاعتراف له بالإخلاص لقضية التعريب ، واستعداده

للتضحية من أجلها على عكس البعض ممن جعل التعريب مطية لتحقيق مطامحه .. وقد تعرض لمضايقات وإهانات وتهديدات ، لايعرفها الكثير .. ولكن إرادته الفولاذية لم تضعف يوما أمام الضغوط ، بل زاده ذلك عزما وإصرارا ، و ترك في كل المناصب التي تولاها ، والمراكز التي مرَّ بها أسسا وبصمات تعريبية لاتنكر : في الخارجية، الرئاسة ، الشؤون الدينية، الحزب ، وبذل جهودا جبارة لإنشاء الأكاديمية التي لم تر النور بعد .. وقد تأتي المناسبة التي نتحدث فيها على بعض المضايقات والتهديدات الرسمية الصادرة من مراكز تمتلك وسائل تنفيذ تهديداتها..

مولود في وزارة الشؤون الدينية :

إنشاء وزارة الشؤون الدينية في بداية الاستقلال كان تحت ضغط عاملين : عامل الضغط الجماهيري ، وعامل التظاه ر بالاهتمام بالدين الإسلامي .. وتحت هذا الضغط ولدتْ كطفل غير مرغوب فيه .. ومنذ البداية لم توفر لها إمكانات الانطلاق الحقيقي ، وإنما انطلقتْ وعاشت بفضل إخلاص بعض الأساتذة المحترمين الذين تفرَّغوا لخدمة الدين الإسلامي ، متحدِّين الظروف الصعبة التي واجهت الو ليد غير المرغوب فيه على مستوى التعامل مع الوظيف العمومي ، ومع الجهات المالية ، حتى قيل عنها في بعض الأوقات بأنها "زاوية مهيكلة " . . كان هذا وضعها حين تسلمها المولود .. ووجد بها ضعفا عاما في إطاراتها ، وهيكلتها ، ومهامها ..

من بين مارواه لي رحمه الله : أن الرئيس بومدين عيَّنه على رأس هذه الوزارة ،كي يعمل على تقليصها إلى مصلحة أو مديرية تابعة للرئاسة ، إلا أن مولود بعد تولِّيه مقاليدها واطلاعِه على ما يمكن أن تقدمه هذه المؤسسة للبلادفي مجالات الثقافة والدين والتكوين والتربية ، تغيَّرت نظرتُه وأقنع الرئيس بومدين بوجهة نظره ، وأعلمه بأنه سيعمل على تطويرها وبعث الحياة فيها ، والخروج بها من دائرة الحصار المفروض عليها بهيكلتها هيكلة عملية وتأطيرهابإطارات صالحة قادرة ، وتمويلها بميزانية محترمة وقارة على شاكلة الوزارات الأخرى ، وقد وجد أذنا صاغية من بومدين الذي يُكنُّ له احتراما خاصا ، ويتقبَّل منه حتى بعض الطفرات التي

لايتقبلها من غيره ، فأقدم على عملية التغيير بشجاعة ، ولو أنه عانى معاناة قاسية من مشكل التأطير . فرض إرادتَه ومشاريعَه على الوظيف العمومي والتخطيط والأجهزة المعنية ، بتدخلاته الشخصية إن افتضى الأ مر ، وبعدم تردُّده في رفع المشاكل التي تعترضه إلى الرئيس بومدين نفسه ، فكان الزعانف من مسؤولي الإدارات يخافون رداتِ فعله وشتائمَه أحيانا . وهو لايتردد في استعمالها عند الحاجة مع من لايحترم نفسه .. عرفت وزارة الشؤون الدينية في عهده ازدهارا أثار حفيظة أعداء الثقافة العربية ـ الإسلامية ، فراحوا يكيدون لوأد مشاريعه ، وكانت له مشاريع ضخمة . . مَن مِن الجزائريين لايعترف بالبعد الوطني والمغاربي والإسلامي لملتقيات الفكر الإسلامي التي كان يسهر عليها مولود شخصيا ، ويحرص على إنجاحها ماديا وأدبيا لتكون في مستوى الرسال ة ، بحضوره الدائم ، وبمتابعته للمحاضرات والتعقيبات ، وبردوده وتعقيباته الموسوعية التي لاتخلو من نرفزة أحيانا حين يستثار . دبلوماسي ومجامل في أوقات المجاملة ، ومتمرد على قواعد الآداب والمجاملة عند ما يستفزه تدخل غير موضوعي من طالب أو أستاذ في الملتقى . قال أحد الطلبة السعوديين : " جئنا هنا لنتكلم عن الفكر الإسلامي ، لاعن التاريخ الجزائري .. " لم يتردد مولود وهو الوزير في الرد عليه بحزم لامهادنة فيه :

" أقول له : لا ، فلتبق في السعودية . ابق هناك . لاتأت إلى هنا . نعم ابق في السعودية . لاتأت إلى الجزائر ، إذا كنت لاتريد أن تسمع شيئا عن تاريخ الجزائر ، وجهاد الجزائر ، واستماتة الجزائر ، فابق يا أخي في السعودية . هذا الذي نتكلم فيه من صميم الإسلام ، صميم التاريخ ، تاريخ الإسلام ، تاريخ كفاح هذه البلاد ، البلاد التي تعرضت للإدماج والمسخ والإذابة والتمسيح " (ملتقى الفكر الإسلامي السادس . م 2 . ص 111) ؟

بل هاجم الأستاذ أحمد مكي من لبنان ، وللأستاذ مكانته ، لأنه قال في تعقيبه : " أليس من الممكن بل ومن المفيد في الملتقيات القادمة أن تكون الدراسات أكثر شمولا ، فلا يكتفى بماضي الفكر الإسلامي فحسب ، بل يدرس حاضره ، ويخطط أيضا لمستقبله" .. فلم يرحمه مولود بالتغاضي ، بل تناول الكلمة وقال : " .. ولكن مع الأسف ، بعض الإخوان

خاصة من حضرات الأساتذة الأفاضل يضطروننني إلى أن آتي من حين إلى آخر إلى هنا ضد رغبتي . فالأستاذ أحمد مكي الآن لو قرأ جدول الأعمال لرأى أننا لسنا في حاجة إلى بعض النصائح عند ما يقول " نرجو من الملتقيات المقبلة أن تتكلم عن الحاضر والمستقبل " . ياحضرة الأستاذ ، لو قرأتم جدول الأعمال الذي هو بين أيديكم لوجدتم أن هناك نقطة من بين نقاط جدول الأعمال " يقظة العالم الإسلامي اليوم ونهضته غدا " موجود ياحضرة الأستاذ . كفانا نصائح فارغة . كفانا من هذه النصائح التي لاتجدي نفعا . كفانا منها . نحن مستغنون عنها . أعطونا النصائح التي نحتاج إليها .." (مولود قاسم . ملتقى الفكر الإسلامي السادس . م 2 . ص 126) مَن يجرؤ ويعلق هذه التعليقات القاسية ؟ ! .. وكم له من مواقف غريبة وجريئة في الملتقيات وغيرها . . حتى أن أحد المشتركين في ملتقى من الملقيات قال لصديق جالس إلى جانبه في لهجة ساخرة : " هذا ليس بوزير .. " وهو في قوله لم يعْدُ الحقيقة ، فمولود في تسييره للملتقيات لايتقمص بذلة الوزارة ، ولايتقيد بالمراسيم الرسمية ، ومظاهر المجاملة ، ولو فعل ذلك لما تكلم إلا بمقدار ، ولما تحرك إلا بإشارة التشريفات ، ولما حضر إلى الملتقيات إلا في حفلي الافتتاح والاختتام كغيره من الوزراء ..مولود في ملتقياته وزير يلبس مئزر المسيِّر المنشِّط الحازم .. ولولا ذلك لماعرفت ملتقيات الفكر الإسلا مي البعد العالمي الذي عرفته ..

مَن يستطيع أن ينكر ازدهار المعاهد الأصلية وحصول طلابها على أعلى نسب النجاح في الباكالوريا في عهده . وارتفاعُ النسب له أسباب موضوعية لايريد المغرضون الاعتراف بها ؟ . . نعم ، يجهل الكثير المعارك الضارية التي خاضها مولود لج عل ملتقيات الفكر موسما سنويا يلتقي فيه الفكر الإسلامي والعالمي .. لم يشرف عليها ولم ينظمها كوزير أو عضو في حكومة ، بل قادها وسيَّرها كمناضل مؤمن بقضيته ، يطرق كل الأبواب لإنجاحها، ولايتردد في المجابهة ومواجهة من يعترض سبيله، مهما كانت قوة المعترض ، لأنه ربط قوة شخصيته بنجاح المهام المسندة إليه ، لا بالمركز والوظيفة ، ولا ببقائه فيهما أو مغادرته لهما . . إن مواقفه الحازمة

والحاسمة من تأميم المعاهد الأصلية لايقفها إلا مولود ، فقد كتب تقارير خطيرة ، ورفع صوته عاليا غاضبا محتجا داخل الحكومة ، وفي الرئاسة، ول كن التعبئة المناهضة - في مراكز القوى - للتعليم الأصلي كانت أقوى ، وأشد تصميما على وضع حد لازدهار المعاهد الأصلية ، وهذا ماجعله يفكر في تقديم استقالته ، لولا تدخل بعض الذين اطلعوا على موضوع الاستقالة .. ولم تكن المرة الأولى التي أزمع فيها الاستقالة من ا لوزارة والنظام الحاكم . . وما موقفه ومقاطعته لزيارة الاتحاد السوفياتي وهو في مطارموسكو بعد أن استُقبل من موظف روسي عادي إلا مثال على اعتزاز الشخص بكرامة دولته التي راح يمثلها ، ولا يرضى لها الهوان دبلوماسيا ، ولو بإحداث أزمة دبلوماسية بين الدولتين .. وهناك خفايا وخبايا في قضية تأميم المعاهد الأصلية وغيرها لم يحنْ وقتُ التعرض لها ..

.. قبل أن يقول كلمته :

قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى بحوالي شهر جمعتْني به الصدفة في المعهد التكنولوجي للبنات ، وقد كنا مدعويْن لحضور الملتقى الذي نظمته جمعية التربية والتكوين . وجدتُه حالسا على مقعد من مقاعد حديقة المعهد وبجانبه الأخ عبد الرحمن شيبان .. بعد تبادل التحايا دخلنا في الحديث عن أوضاع البلد، أخبرني بزيارة المرحوم محمد بوضياف لعنابة في ذلك الصباح، علقتُ على الخبر " إنها زيارة محفوفة بالمخاطر. . " ، فسألني شيبان : " لماذا ؟ " أجبته : " ألا تدري بأن عنابة هي التي أنجبتْ محمد بن صدوق الذي قتل شكال الجالس بجانب روني كوتي رئيس الجمهورية الفرنسية رغم الحراسة المشددة ؟ .." فعلَّق مولود على كلامي قائلا :"وهل نحن في فرنسا ؟ " قلت له : " وهل للاغتيال وطن ؟ " وحان وقت الدخ ول لقاعة الملتقى ، وسارت جلسة الصباح سيرا عاديا ، وبعد الانتهاء منها اتجهنا لتناول الغداء .. جمعت المائدة بيني وبين مولود ، وكنا في غمرة هموم لاعلاقة لها بالملتقى ، وفجأة وقف على طاولتنا شيبان والتأثر باد على محياه يسألنا : " هل سمعتم النبأ ؟ " ، فلما أج بنا بالنفي ، قال: " لقد اغتيل محمد بوضياف رحمه الله .." لم يصدق مولود في أول وهلة ما سمعته أذناه

إلى أن أكد له شيبان الخبر ؟ .. أعلن منظمو الملتقى تأجيله إلى وقت قادم ، في جو حزين قاتم تملأه عدة تساؤلات ..

انصرف الحضور ، وتوجهتُ إلى سيارتي ، وإذا بمولود يناديني ، راجيا مني البقاء معه ، فانزوينا في ناحية من الحديقة ، نستعرض المحنة التي تمر بها البلاد . بدا لي من حديثه أنه غير عادي ، وأن هناك شيئا مّا يضايقه، فرحت داخل نفسي أحاول أن أعرف السبب ، فلم أهتد إليه ، قد يكون الفراغ أحد الأسباب ، لأن الرجل تع ود حياة النشاط والعمل ، وعند ما هممنا بالافتراق أشار بيده نحو السماء في تذمر واضح وهو يرتعش : " لي كلمة لابد أن أقولها .. فقد حان وقتها .." وافترقنا دون أو قبل أن يقولها ، وكنت أنتظر أنه سيقولها في مستقبل الأيام ، وإذا بالموت يختطفه من بيننا قبل أن يقوله‌ا ، وفبل أن يحقِّق مشاريع كان يهم القيام بها ..

هذه بعض الصور عن مولود المثقف الوطني الشهم الذي لم يعش لنفسه ولعائلته ، بقدر ماعاش لمبادئه السامية ولأمته .. فرحم الله مولود رحمة الشهداء الذين نذروا حياتهم لخدمة الوطن والثقافة العربية الإسلامية..